الباب الثالث

الصوفية وأمريكا والغرب

الصوفية:

تهتم بعالم الروحانيات الداخلية والتجارب العاطفية والشخصية للشيوخ ، وتعتبر في غالب الأحيان الإسلام الشعبي ، اتباع الصوفية كثيرون في العالم الإسلامي وتشكل الطرق الصوفية قاعدة مهمة من الهيكل الاجتماعي والقيادة المؤثرة في الصوفية هم الشيوخ ، وفي كثير من البلدان الإسلامية يلعب مشايخ الصوفية على اختلاف طرقهم التي ينتمون إليها دوراً مركزياً في السياسة والدين ، وفي طقوسهم المعروفة بالذكر يقومون بتراتيل وتمايلات وغناء للوصول للنشوة الروحانية التي يزعمون أنها تقربهم من الله.

الوهابية والسلفية هم أشد أعداء الصوفية والتقليدية في العالم الإسلامي ونتيجة لهذا العداء فالصوفية والتقليدية هم حلفاء طبيعيون للغرب في حربهم ضد الراديكالية.

الصوفية والسياسة

الصوفية منذ أن نشأت كحركة تدين مغلوط مستوردة من الهند وإيران في أواسط القرن الثاني الهجري كرد فعل سلبي علي حالة الترف التي أصابت المجتمع الإسلامي في تلك الفترة،هذه الحركة منذ أن ظهرت وهي تمارس أعلي درجات الانكفاء علي الذات من أجل تطهير النفس والبعد عن مخالطة الناس، ولقد اختارت الصوفية البعد تماماً عن مشاركة الناس شئونهم، واعتزلت المناصب والأعمال والولايات وسائر أمور السياسة، ورضيت بالانسحاب من المجتمعات الإسلامية .

وبالغت أدبيات الطرق الصوفية في الإنكار علي من خالط السلطان وأقحم نفسه في شئون الحكم، واعتبرت أن ذلك الأمر من قبيل نواقص التصوف والانبهار بالحياة الدنيا، وأجمعت علي ترك الأمور السياسية لأهلها، عدم الخوض في تلك المسائل ولو كانت من أهم مشكلات الأمة، لذلك فلم يعلم عبر التاريخ الإسلامي اهتمام الصوفية بأحوال المسلمين العامة ومشاكلهم العالمية، بل إن الجهاد بمعناه الواسع لم يذكر يوماً في أدبيات الصوفية، فكتاب إحياء علوم الدين الذي يمثل دستور التصوف الأول، خلا من الكلام عن الجهاد ضد أعداء الأمة علي الرغم من كون مؤلفه أبي حامد الغزالي قد كتبه بالشام في ذروة الاكتساح الصليبي لبلاد الشام وعقب سقوط بيت المقدس فى يد الصليبيين، ونتيجة لهذا التصور السلبي المنكفئ للصوفية كانت العلاقة دائماً بين الحكم والصوفية علي ما يرام، فالصوفية تؤيد السلطة الحاكمة مهما كانت حالها ووضعها، والسلطة الحاكمة في حالة رضا دائم عن كل الطرق الصوفية باختلاف أنواعها.

الحركات الصوفية في العالم الإسلامي

يقول الباحث الموسوعي الدكتور عبد الوهاب المسيري :ومما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام، يشجع الحركات الصوفية أن أكثر الكتب انتشاراً الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين بن عربي وأشعار جلال الدين الرومي وقد أوصت لجنة الكونجرس الخاصة بالحريات الدينية بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف ولا شك صلابة مقاومة للاستعمار الغربي وجاء في كتاب العالم الإسلامي بعد أحداث 11/ 9 ، وهو عبارة عن بحث تفصيلي يهدف إلى التعرف على

الحركات والمذاهب الدينية القادرة على التغيير والتأثير في المشهد الديني والسياسي في العالم الإسلامي ، واستكشاف أهم الاختلافات في العالم الإسلامي ، وتحديد منابع الراديكالية الإسلامية فى زعمهم وللتذكير فمن ضمن الفريق الرئيسي لإعداد هذا التقرير يأتي اسم شيريل بينارد وهي زوجة السفير الأمريكي في العراق زلماي خليل زاده ، والتقرير بتمويل من القوات الجوية الأمريكية جاء فيه عند ذكر الطريقة التقليدية ويراد بها الصوفية يشكلون غالبية المسلمين اليوم وهم محافظون على معتقداتهم الإسلامية وتقاليدهم المحلية ، غير متشددين ، يعظمون قبور القديسين ويؤدون عندها الصلوات ، يؤمنون بالأرواح والمعجزات ويستخدمون التعاويذ ، ومجموعة الاعتقادات هذه أزالت تماما التعصب والشدة الوهابية وأصبح الكثير من التقليديين يشابهون الصوفية في السمات والاعتقادات ، لا يرون تضارباً بين معتقداتهم الدينية وولائهم لدولهم العلمانية وقوانينها.

التصوف في أحضان ورعاية الغرب وأمريكا

أحد النبهاء الفاهمين قال يوماً :إذا وجدت نفسي وعدوي في خندق واحد فيجب علي أن أراجع حسابي في طريقي وسلوكي ونقول للصوفية انظروا أين أنتم ، انظروا فيمن حولكم ظلمات بعضها فوق بعض ندوات ومؤتمرات وقسيسون ورهبان وكنائس وصلبان و رقص وغناء وإحياء لتراث متعفن ومندثر.

ومن صميم الواقع الأليم الذي نعيشه اليوم مع صوفية زماننا ، أن بلغ أن تقام الحضرات وحلق الغناء الصوفي في الكنائس ؟ وعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر من عام2001 ، اتخذت الولايات المتحدة

الأمريكية ومعها الغرب موقفًا عدائيًّا من العالم الإسلامي على وجه العموم والحركات الإسلامية على وجه الخصوص، وظهر ذلك جليًّا في الممارسات المتحيزة ضد المسلمين ووجدنا استثناء من هذا التوجه، يحكم علاقة الغرب بالطرق الصوفية، وهو الأمر الذي يطرح أسئلة متعددة عن سر العلاقة التي تحكم الطرفين، وما الذي يراه الغرب ويؤمله في تلك الطرق، وما هو مدى استجابة تلك الطرق لنداءات الغرب.

وإذا اقتربنا أكثر من تلك المراكز نجدها ترفع شعار الاستقلال وعدم الربحية، بمعنى أنها لا تتبع الحكومة ولا تهدف للربح المادي، وذلك لإعطاء مخرجاتها من الأبحاث والتقارير والمؤتمرات وغير ذلك المزيد من الصدق والموضوعية، هذا من جانب ومن جانب آخر يعفيها من دفع الضرائب للحكومة كونها مراكز غير ربحية وثمة أمرٌ آخر وهو أن بعض أبحاث تلك المراكز يكون بناءً على طلب من الحكومة الأمريكية، لذلك يسمي الأكاديمي الأمريكي دونالد أبلسون تلك المراكز بمتعهدي الحكومة أو مقاولي الحكومة،ويأتي على رأسها بطبيعة الحال مؤسسة راند ومركز بروكنيجز ومعهد كارنيجي وغيرها، لذلك فليس كل ما تنتجه تلك المراكز يكون قابلًا للتداول والنشر، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية، وليس أيضاً كل ما تنتجه يكون ذا صدق وموضوعية خاصة فيما يتعلق بالعالم الإسلامي أما عن دراسة الحالة الإسلامية فإن العناية الغربية بدراسة العالم الإسلامي بتفاصيله بدأت منذ قرون عدة وتنامت وبرزت مع تنامي الرغبات الأوروبية التوسعية الاستعمارية، حتى باتت تلك العناية عِلمًا مستقلًا له مدارسه وعلماؤه وتلاميذه، وسمي علم الاستشراق وحظي بالدعم الحكومي لأنه يخدم

الأهداف الغربية الاستعمارية بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد ورثت هذا كله الولايات المتحدة الأمريكية من أوروبا التي انحسر دورها في العالم منذ منتصف القرن العشرين، واستمر الاستشراق على حاله وأهدافه وإن تغير في بعض مسمياته ومظاهره، فالمستشرق مثلًا بات يُسمى خبيرًا أو باحثًا في شؤون الشرق وهكذا.

أما التصوف تحديدًا فقد حظي بعناية ودعم المستشرقين الغربيين بشكل كبير منذ القرن التاسع عشر الميلادي، والناظر في التراث الصوفي المعاصر يجد فيه بصمات المستشرقين ظاهرة؛ سواءٌ بتحقيق كتب المتصوفة ونشرها أو التأليف في التصوف ورموزه، حتى إن آراء بعض المستشرقين المعتنين بالتصوف كالفرنسي لويس ماسينيون ت1962م والإنجليزي رينولد نيكلسون ت1945م لها أهميتها واعتبارها حتى عند المتصوفة أنفسهم، وتآليفهم شاهدة بذلك وقد اعتنى ماسينيون بالحلاج عناية فائقه ونشر كتابه الطواسين وحقق كثيرًا من أخباره، واختار أن يكون الحلاج موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراه من باريس، وبالفعل أنجزها وتُرجمت إلى العربية بعنوان آلام الحلاج، شهيد التصوف الإسلامي وهي تطبع اليوم وتوزع بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية فى لبنان0

ونيكلسون حقق ونشر العديد من مصادر وتآليف التصوف ككتاب اللمع لأبي نصر السراج،وكشف المحجوب للهجويري، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، وديوان جلال الدين الرومي واللزوميات للمعري، وله أيضًا تآليف عديدة في التصوف؛ من أبرزها كتاب التصوف الإسلامي ويقع في ثمانية مجلدات، وبهذا الكتاب كما يقول العقيقي صاحب موسوعة المستشرقين عُدَّ نيكلسون حجة في التصوف وبعد

أحداث الحادي عشر من سبتمبر ركز الغرب نظراته على الأمة الإسلامية، وبدأ حربًا شعواء ضد كل ما هو إسلامي، وظهر المخطط الأمريكي الخاص بمشروع الشرق الأوسط الكبير في محاولة لمحاربة التيارات الإسلامية تحت شعار محاربة الإرهاب، فلماذا لم يضع الغرب الطرق الصوفية في سلة الحركات الإسلامية؟0

في الحقيقة أن العالم الإسلامي لم يغب عن نظر الغرب وكيده منذ قرون عديدة، وما سقوط الدولة العثمانية وتجزئة بلدان العالم الإسلامي إلى دول إلا ثمرة من ثمرات الكيد الغربي وما حدث بعد 11 سبتمبر إنما هو تغيير في التكتيك وطريقة التعامل مع العالم الإسلامي، فوظفت أمريكا كل إمكاناتها العسكرية والمالية والاستخباراتية لتطبيق ذلك التكتيك الجديد دون اعتبار لكرامة أحد، حتى سيادة الدول على أراضيها ناهيك عن شعوبها، وخلع الغرب وتحديدًا أمريكا لقب الإرهاب على كل ما يتعارض أو لا يتماشى مع مصلحته، أما ما يتماشى مع مصالحه فهو الصديق والحليف، وهو من يستحق الدعم منهم، ويبدو جليًا أن التصوف يقع ضمن النوع الثاني يرى الغرب كما يشهد بذلك تاريخهم الاستعماري أن التصوف يمثل النموذج الإسلامي الذي يتوافق مع مصالحه، وقد شاب هذه القناعة بعض الفتور بعد تغير موازين القوى في القرن العشرين المنصرم، إذ كان الغرب بحاجة إلى إعطاء الإسلام الحق الفرصة لكي يقلل من تسلل الشيوعية إلى العالم الإسلامي، فضعفت الحاجة للتصوف وقتها، ولكن هذه القناعة بجدوى التصوف عادت إلى السطح مرة أخرى بعد 11 سبتمبر.

الدعم الأمريكي للصوفية:

لا يقف الأمر عند الأخبار والمواقف، التي لا يتأخر فيها الأمريكيون عن إبداء إعجابهم وإعلان دعمهم للصوفية، لكن الأمر يتجاوز ذلك إلى خطط تهدف لجعل الإسلام الصوفي هو الدين السائد في المنطقة المسلمة علاوة على أن هناك العديد من الدراسات الأمريكية والغربية التي ترى أنه من الممكن استخدام الحركات الصوفية لمجابهة حركات الإسلام السياسي والسلفية، ويعتقد الرئيس الأمريكي جورج بوش نفسه إمكانية ذلك وفي الأعوام الأخيرة، صنفت تحليلات مراكز الأبحاث الأمريكية الصوفية في خانة الإسلام المعتدل ودعت الغرب إلى تشجيعها ورعايتها باعتبارها تنبذ العنف ولا تتبنى التطرف.

ويكشف الدكتور عبد الوهاب المسيري عن توصية للجنة الحريات الدينية التابعة للكونجرس الأمريكي بضرورة تشجيع حركات الإسلام التقليدي والصوفي، ويقول المسيري :ومما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام يشجع الحركات الصوفية، ومن أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين بن عربي، وأشعار جلال الدين الرومي وفي هذا الإطار ذاته، عقد مركز نيكسون بالولايات المتحدة مؤتمرًا في24/10/2003 م، كان موضوعه عن فهم الصوفية والدور الذي ستلعبه في رسم السياسة الأمريكية وكان الهدف من هذا المؤتمر، الذي جاء بعد عامين من أحداث سبتمبر، عقب سقوط بغداد بأشهر قليلة، هو تقديم الإسلام الوسطي أو الإسلام الثقافي لصانعي القرار والأكاديميين الأمريكيين.

وكان من أبرز المشاركين في المؤتمر الذي أقيم برعاية وزارة الدفاع الأمريكية؛بيرنارد لويس أستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة برينستون بولاية نيوجيرسي، وهو من منظري الحرب الأساسيين على العراق، وأحد أشد الكتاب الأمريكيين عداوة للإسلام من خلال كتاباته الناقدة والمستهدفة للإسلام وفي الجانب المسلم شارك الشيخ محمد هشام قباني نائب رئيس المجلس الأعلى الإسلامي في أمريكا، ISCA الذي تأسس عام1997 م ,ويتبع الطريقة النقشبندية الصوفية، ويهدف إلى رسم مستقبل المسلمين في أمريكا وأرجاء العالم، وكان القباني قدم في يناير عام1999 م محاضرة في وزارة الداخلية الأمريكية بعنوان التطرف الإسلامي وخطورته على الأمن القومي الأمريكي أوضح فيها أنهم كصوفيين يبقون المتحدثين الأهم عن الجمعيات الإسلامية لمحاربة الإرهاب والتجمعات المتطرفة الدينية وهكذا يتضح لنا أن الأمريكيين يرون في الصوفية مشروعًا جديدًا لمواجهة الإسلام وتخريبه من داخله،وهي محاولة يبدو أنها تلقى تجاوبًا من بعض الصوفية،غير أن السؤال الذي يلح علينا، ما سر هذا الدعم الأمريكي للصوفية؟!وما الأمور التي وجدها الغربيون في الصوفية يدفعهم لدعمها وتأييدها وعن موقف الغرب من الصوفية فلم يكن الغرب يوماً من الأيام غافلٍ عن تيار الصوفية، لكن يبدو أن فترات العلاقة والولاء بينهما شابها مدٌ وجزر، بحسب المصلحة؛ فالغرب لا يعرف في علاقاته سوى مقياس المصلحة.

وبما أن أمريكا والغرب لم يكونوا قبل11 سبتمر2001م بحاجة ماسة للصوفية، فإن العلاقة بينهما لم تكن على أشدها، أما بعد ذلك التاريخ، الذي غيرت أحداثه العديد من التوازنات والتحالفات والمصالح، فإن العلاقة مع الصوفية أخذت شكلاً آخر.

استضاف برنامج الأمن الدولي في مركز نيكسون في الرابع والعشرين من أكتوبر2003 م مؤتمراً لاستكشاف الدور الذي يمكن أن يقوم به التصوف ضمن أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، وكان هدف المؤتمر بحسب تقرير نيكسون هو تعريف صانعي السياسة ومجتمع صناعة القرار بهذا الجزء المهمل من الإسلام، الذي يشار إليه غالباً بالإسلام الثقافي،الذي يمارسه ملايين الناس حول العالم وضمنه الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان من أبرز المشاركين في ذلك المؤتمر :المستشرق برنارد لويس، والشيخ محمد هشام قباني، شيخ الطريقة النقشبندية في أمريكا ومن أبرز التوصيات التي قدمها المشاركون في ذلك المؤتمر ما يلي:

.1تشجيع نشر كتابات الصوفيين المحليين الأمريكيين،وترجمة النصوص الكلاسيكية الصوفية من قبل صوفيين محليين إلى اللغات المحلية المعاصرة، واللغة الإنجليزية، الأمر الذي سيعطيها شهرة كبيرة، خاصة عند الشباب.

.2تشجيع دمج القيم الصوفية مع قيم المجتمع المدني في المعاهد التعليمية .

.3إسداء النصح للعديد من دول آسيا الوسطى وحثها على التأقلم مع موقف الانفتاح نحو إعادة إحياء الصوفية خاصة الطريقة النقشبندية.

.4تشجيع إحياء الثقافة والآداب الصوفية، وفي الوقت نفسه إحياء تقاليد زيارة الأضرحة والمقامات في كل دولة.

وكان آخر سؤال قُدِّم للمجتمعين هو عبارة عن طلب تقديم مقترحات للحكومة الأمريكية لتحسين حوارها مع العالم الإسلامي، وقد أجاب عنه برنارد لويس باختصار بقوله :أقترح أن عليهم أن يتحدثوا إلى الشيخ قباني ومن جانب آخر حذَّر قباني من أن الحكومة الأمريكية تعمل في النهاية مع الوهابيين في كل أنحاء العالم، وبدلاً من ذلك اقترح أن على الحكومة الأمريكية أن تطلب من الأشخاص المناسبين البحثَ لها عن علماء معتدلين، وأن تطلب منهم أيضاً الاقتراحات المناسبة لسياسة أمريكا0

وأكد في موضع آخر أن الصوفيين يستطيعون أن يلعبوا دوراً كبيراً في بناء جسور بين الثقافات والمجتمعات والدول المختلفة، ويستطيعون بصفة خاصة أن يجعلوا الإسلام يزدهر دون سيطرة دولة معينة، فإذا أُعطي الصوفيون الفرصة والتشجيع فإنهم قادرون على تحقيق الكثير بطريقة سلمية ومحمد هشام قباني له نشاط كبير داخل أمريكا وخارجها في الدعوة إلى الصوفية، وفي التحذير من أهل السنة أو من يسميهم بالوهابية،لذلك فقد عقدت وزارة الخارجية الأمريكية جلسة استماع سريه مع قباني أذيعت فيما بعد، وجاء فيها قوله :إننا نريد أن ننصح حكومتنا الأمريكية وأعضاء الكونجرس أن هناك شيئاً كبيراً وأنتم لا تعرفونه، وهو أنه يوجد العديد من المساجد في الولايات المتحدة، وأن الحكومة الأمريكية ليست لها سياسة تجاه هذه المساجد لتنظم عملها وأخطر شيء في هذه المساجد هو الفكر المتطرف وأصحابه نشيطون للغاية وهؤلاء يسيطرون على 80 بالمئة من المساجد في أمريكا ولقد نصبوا العداء للصوفية بشكل مطلق، لأنهم ،أي الوهابية يؤمنون أنه بإمكانك أن تصل إلى الله مباشرة دون الحاجة لقِدِّيس أو أي شخص

آخر،وأفتى أيضاً في جلسة الاستماع تلك بأن قتال إسرائيل غير شرعي لأنه تم توقيع اتفاقية سلام معها من قبل بعض الدول0

وفي أوزبكستان حيث تربطه مع رئيسها كريموف علاقة قوية، أفتى بأن كريموف ظل الله في أرضه، وأن من يعارضه فهو عاص فاسق كافر وأفتى أن المسلم يكفيه الشهادتين ولا يلزمه بعد ذلك صوم ولا صلاة، فالإسلام في القلب وكفى، وأفتى بجواز عدم ارتداء الحجاب هذه بعض سيرة محمد هشام قباني الذي يتمنى برنارد لويس على الحكومة الأمريكية أن تتحاور معه.

وفي تقرير نشرته مجلة U.S.News الأمريكية بعنوان قلوب وعقول ودولارات في17/4/2005 م وسُطِّر في ديباجته العبارة التالية في جبهة غير مرئية في الحرب على الإرهاب، أمريكا تنفق الملايين لتغيير وجه الإسلام(، يقول ديفيد كابلان مُعد التقرير :-يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحداً من أفضل الأسلحة ضد تنظيم القاعدة والإسلام الجهادي فالصوفية بطرقها الباطنية تمثل توجهاً مناقضاً للطوائف الأصولية كالوهابية التي يمنع أئمتها تعصباً الموسيقى والرقص لا بل حتى الحب الرومانسي فالمزارات الصوفية دُمِّرت في السعودية واضطر أتباعها إلى التواري عن الأنظار بعد اتهامهم بالزندقة بذريعة تقديسهم للقديسين لكن الصوفية تعود، ولها اليوم أتباع مخلصين في آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا الغربية، ناهيك عن مئات الملايين ممن يتبعون التقاليد الصوفية لكن النشطاء الصوفيين يقولون أنهم يواجهون في ميدان الدعوة مليارات الدولارات التي تنفقها الإرساليات المدعومة رسمياً من السعودية لنشر الوهابية وبينما لا يستطيع الرسميون

الأمريكيون أن يُقروا الصوفية علناً، بسبب فصل الدين عن الدولة في الدستور الأمريكي، فإنهم يدفعون علناً باتجاه تعزيز العلاقة مع الحركة الصوفية والتقرير أورد أمثلة عملية على بوادر الدعم الأمريكي الخفي للصوفية فقال :في قرغيزستان، ساعدت أموال السفارة الأمريكية فى ترميم مزار صوفي مهم وفي أوزبكستان، أُنفق المال لحفظ النصوص الإسلامية العتيقة وفي30/1/2004 م نشرت صحيفة يني شفق التركية خبراً مفاده أن الرئيس بوش الابن عرض على رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان خلال استقباله له في البيت الأبيض في 18/1/2004م معالم المشروع الأمريكي الجديد للشرق الأوسط الكبير الذي يمتد من أندونيسيا إلى المغرب مروراً بجنوب آسيا وآسيا الوسطى والقوقاز وبحسب الصحيفة فإن المشروع طبقاً لما عرضه الرئيس الأمريكي جعل من تركيا عموداً فقرياً له، حيث ترغب واشنطن أن تقوم تركيا بدور محوري فيه، بحيث تتولى الترويج لنموذجها الديمقراطي واعتدالها الديني، لدرجة أن الرئيس الأمريكي اقترح أن تُبادر تركيا إلى إرسال وعاظ وأئمة إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي لكي يتولوا التبشير بنموذج الاعتدال المطبق في بلادهم وتيار الاعتدال الديني التركي الذي يتمنى الرئيس بوش الابن التبشير به في أنحاء العالم الإسلامي هو التيار الصوفي السائد في تركيا بطرقه المتعددة ية، منذ زمن الدولة العثمانية.

أسباب الدعم الغربى للصوفية:

نستطيع أن نحصر أسباب الدعم الغربي للصوفية في ثلاثة أسباب، تتمثل فيما يلي:

-1الحب والرضا عندما يكونان في غير موقعهما:يعرف عن الصوفية اهتمامهم بمعاني الإيمان وأعمال القلوب، وهو اهتمام محمود إذا كان في أطره الشرعية ولم يأتِ مخالفاً للثوابت الشرعية.

وفي هذا الإطار، فالصوفية هم أكثر من تكلم عن الحب، والحب هو جوهر الإسلام، غير أنه، للأسف، حاول البعض استغلال الاهتمام الصوفي بالحب فأخرجوه عن الإطار الشرعي المنضبط ,فبعد أن كان الحب المقصود الحب في الله والبغض في الله، صار الحب لا يفرق بين ولي لله وبين معادٍ له عز وجل، وهو ما يسمى بوحدة الوجود، وهي الاعتقاد بأن الله هو الوجود المطلق الذي يظهر بصور الكائنات، وهذا الأمر من ثماره اعتبار كل الأديان صحيحة؛ لأن كل المعبودات هي الله وكل شيء هو الله، ويترتب على ذلك إلغاء عقيدة الولاء والبراء بين المؤمنين والكافرين.

وفي هذا الإطار نجد جلال الدين الرومي يقول في أحد أشعاره:

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي

توكلتُ عليك أيها الحق الأعلى، فلا تَنْءَ عني لا تَنْءَ عني

ليس لي سوى معبدٍ واحد، مسجدًا كان أو كنيسة أو بيت أصنام.

كما أن الرئيس الأمريكي في أحد أحاديثه استشهد ببيت من شعر الرومي، يقول فيه :المصابيح مختلفة ولكن الضوء واحد.

وهو بيت، قد يكون الرومي يقصد من ورائه الحب بمعناه الواسع المنفتح،غير أن الأمريكيين والغربيين يجدون في هذا الحب غير

المنضبط بميزان الشرع فرصة لاختراق الصوفية، وجعل الصوفية جزءاً من المشروع الأمريكي للسيطرة على المنطقة المسلمة.

ومن معاني الإيمان التي تركز عليها الصوفية، الرضا، وهو مفهوم إسلامي عظيم الشأن، غير أنه يجب أيضاً أن يكون منضبطًا بالضوابط الشرعية، فالمسلم لا يرضى بأن يعلو أعداء الدين، والمسلم لا يرضى بالظلم والهوان، والمسلم لا يرضى بحاله المخالفة للشرع بل هو مأمور بالتغيير، غير أن بعض طوائف الصوفية غالت في معنى الرضا حتى أخرجته من معناه الشرعي وجعلت منه المسلم سلبيًا مستسلماً لما حوله من ظلم وطغيان لا يفكر في تغيير ولا يحلم بمقاومة، يعبر عن هذا الغلو في جملة مختصرة الشعراني صاحب الطبقات فيقول :لقد أخذ علينا العهد بأن نأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيفما دار، ولا يزدروا قط من رفعه الله عليهم، ولو كان في أمور الدنيا وولايتها، كل ذلك أدباً مع الله عز وجل الذي رفعهم، فإنه لم يرفع أحدًا إلا لحكمة هو يعلمها.

هذه المفاهيم المتطرفة في معنى الرضا وجد فيها الغربيون والأمريكيون فرصة لاختراق الصوفية، وساعدها على ذلك طوائف من الصوفية لا تجد غضاضة في التعاون مع الأمريكيين، فهذه مجلة المسلم الخاصة بالعشيرة المحمدية الصوفية، تقول في عددها الصادر في ذي الحجة 1426هـ يناير2006 م، العدد السادس :594 ومن جانبه أشار السفير الأمريكي بالقاهرة ريتشارد دوني إلى أن هناك تقاربًا وتشابهًا في مبادئ وسلوك القديسين وسلوك المتصوفة، بالإيمان المشترك بالبساطة والسماحة وقوة وسلطان الحب والإيمان بأثره الكبير على انتشار السلام والأمن العالميين، وأكد اهتمامه الشخصي بفكر التصوف منذ أكثر من 20عاماً، خاصة أنه يتبنى مبادئ مقربة لفكر المجتمع الأمريكي الداعية

إلى حرية العبادة والاعتقاد والتسامح والديمقراطية بين الناس، وكذلك رفض كل أشكال العنف داخليًا وخارجيًا.

فهذه مجلة صوفية لا تجد غضاضة أن تقارن نفسها بالمجتمع الأمريكي، وأن تفتخر بتشابهها مع سلوك القديسين، ولا عجب في ذلك ما دام يرى الصوفية في الحب والعشق الإلهي دينًا يقدم على كل ما جاء به الكتاب والسنة كما أن مركز راند، وجد في مفهوم الرضا عند الصوفية نموذجاً مثالياً لتغيير الإسلام، وجعله إسلاماً طيعاً مطيعاً، فهذا النوع من الصوفيين لا يجد غضاضة في أن تسود العلمانية بينما هو قابع في زواياه يترنح يميناً ويساراً، يقول مركز راند في تعريفه للصوفيين:وأصبح الكثيرون منهم لا يرون تضاربًا بين معتقداتهم الدينية وولائهم لدولهم العلمانية وقوانينها ويعترف المستشرق بيرنارد لويس بأن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائيًا عن قضايا السياسة والاقتصاد والولايات المتحدة تسعى لتشجيع ودعم الصوفية باعتبارها واحدة من أهم وسائل التصدي للجماعات الإسلامية، هذا ويعتقد بعض كبار الاستراتيجيين الأمريكيين أن أتباع الصوفية ربما كانوا من بين أفضل الأسلحة الدولية ضد القاعدة وغيرها من الإسلاميين.

دعم الطرق الصوفية في الغرب

إذا كان الغرب يدعم التصوف في العالم الإسلامي فمن البديهي أن يدعمه فوق أرضه لا سيما وأن المسلمين يشكلون أعدادًا لا يستهان بها

في الغرب، وأضرب لذلك مثلًا واحدًا مهمًا وهو أن التصوف بات مادة تدرس في الجامعات الغربية التي تتناول الإسلام في دراساتها، وبين مفردات تلك المادة ستجد أسماء الحلاج وابن عربي والرومي وغيره، وقد تحدث عن هذا الأمر بالتفصيل الدكتور محمد وقيع الله في كتابه القيِّم الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، ولا يخفى على أحد أن التصوف بمشايخه وطرقه ومريديه وخرافاته يتواجد بحرية في الغرب دونما أية تضييق أو متابعة لا قبل 11 سبتمبر ولا بعده لكن هل له تأثير على المسلمين الجدد في ضوء ما يؤكده الباحث الفرنسي المختص بشؤون الحركات الإسلامية،ستيفن لاكروا،أستاذ العلوم السياسية بجامعة سيانس بو من أن أغلب المسلمين الجدد في الغرب يتجهون ناحية التصوف ؟ومنبع اهتمام أمريكا بالصوفية انه على امتداد سنوات العقد الماضي تركز اهتمام الإدارات الأمريكية المتعاقبة على الجماعات الصوفية في باكستان والصومال والسودان ومصر والأردن، وبعض دول المغرب العربي، ودول أوروبا وأمريكا ومبعث هذا الاهتمام الكبير بالصوفية، والفئات الأخرى؛ هو بحث أمريكا عن شريك داخل جسد الأمة المسلمة يمكن أن تنفذ من خلاله استراتيجياً إلى تحجيم وإبعاد التيارات التي تقف حجر عثرة أمام هيمنتها على المسلمين ومسعاها لإقصاء الإسلام من حياتهم وقد وجد الباحثون الأمريكان هذه الضالة المنشودة في الصوفية بصورة مركزية، من خلال وجهات نظر عديدة:

•فكرياً :يرى الأمريكان أن فرق المتصوفة والنخب الليبرالية ، هم أكثر المجموعات التي يسهل استيعابها وانخراطها في المشروع الأمريكي لمواجهة المد السلفي والإسلام السياسي في العالم؛ لما يتمتعون به من

رغبة قوية واستعداد للالتقاء والعمل مع الآخرين من أجل إقصاء السلفية من واجهة التأثير في العالم الإسلامي.

•دينياً :يتصور الغرب، وأمريكا على وجه الخصوص، أن الصوفية أكثر الفئات المسلمة تساهلاً في اتباع السنة وأعلاها احتفاء بالمبتدعات وأقلها في جانب تطبيق النصوص المنادية بالعمل بفهم السلف الصالح.

•سياسياً:يتصوّرون أن الفرق الصوفية أكثر المسلمين اعتدالاً، وأكثرها ابتعاداً عن العمل السياسي ونهج العنف،وأقل إلحاحاً في المطالبة بتطبيق الشريعة وخلاصة الدراسات الأمريكية التي بُنيت عليها استراتيجية استغلال التصوف:

-الصوفية تُمثِّل :البديل الثقافي والاجتماعي والدين الأساسي لمواجهة الأشكال الأيديولوجية للإسلام المهيمنة حالياً في العالم الإسلامي.

-الصوفية هي :الإسلام الذي يمكن أن تتعامل معه أمريكا والغرب.

-الصوفية تُعتبَر أوضح خيار للمسلمين للمصالحة بين العالم اليهودي - المسيحي والعالم الإسلامي.

-السفارات الأمريكية تسابق الزمن في استغلال الصوفية:

ليس صدفة أن ينهمك الدبلوماسيون الأمريكيون في الدول الإسلامية بإبداء رعاية خاصة للطرق الصوفية، فالمعلومات التي تتناقلها الوسائط الإعلامية المختلفة تشير إلى شروع الدبلوماسية الأمريكية، من خلال السفارات الأمريكية المنتشرة عبر دول العالم الإسلامي؛ في فتح قنوات تواصل وتنسيق مع الفِرق الصوفية المنتشرة في هذه الدول في إطار

تطبيق استراتيجية أمريكا في استخدام التصوف في محاربة المد السلفي في العالم الإسلامي.

وتتسابق السفارات الأمريكية ودبلوماسيّوها في العواصم الإسلامية على خلق علاقات قوية مع مشايخ الطرق الصوفية الذين يدين لهم جميع مريديهم بالولاء والطاعة الكاملة عبر الزيارات واللقاءات التي تتم معهم في دورهم ومشيخاتهم،كأسلوب عملي مؤثر للنفاذ إلى قلب الطريقة الصوفية ومحبّيها، ومن ثم البناء على تلك العلاقة لخلق أرضية للعمل المشترك مع الصوفية.

العبور الأمريكي عبر الزاوية الصوفية

لا تخافوا سائر الإسلاميين، خافوا السلفيين بهذه العبارة الموجزة لخص الكاتب روبن رايت هواجس أمريكا حول التطرف الإسلامي، زاعماً ظهور ما يُسمّيه :هلال سلفي جديد يتشعب من مشايخ الخليج العربي إلى بلاد الشام وشمال أفريقيا، هو أحد المنتجات الجانبية الأكثر تجاهلاً والمثيرة للقلق من الثورات العربية وبدرجات متفاوتة يتحرّك هؤلاء المتشدّدون في المجال السياسي الذي كان يحتله المجاهدون، الذين هم أقل رواجاً الآن وكلاهما أصوليون يفضلون نظاماً جديداً مشكّلاً على غرار الإسلام الأول وليس بالضرورة أن يكون السلفيون مقاتلين، فأغلبهم ينبذ العنف وهكذا قويت مع الزمن هذه الهواجس في نفوسهم، لدرجة وضع فيها الغرب جميع السلفيين في خانة التشدد،وانطلقوا يواجهون ما يصفونه بتيارات الإسلام المعتدل ولقد كان من إحدى العلامات البارزة في مجال صناعة وصفة الإسلام المعتدل، توظيف الغرب مراكزه وبحوثه ودراساته المتخصصة في المجالات الإسلامية

لبناء مصادر معلوماتية زاخرة لصنّاع القرار والسياسات، واضعاً بين أيديهم خلاصات رصد الصحوة الدينية وسط المسلمين،والتي يجرى دفعها في نهاية المطاف إلى المطابخ الاستراتيجية من أجل تحويل مخرجاتها النهائية لأغراض الإنذار المبكر حول الإسلام والجماعات الإسلامية والصحوة الإسلامية،هذا إلى جانب الاستفادة منها في بناء الاستراتيجيات والسياسات الميدانية لمواجهة التطور الحادث في العمل الإسلامي على مستوى الدول والمجموعات الإسلامية وقديماً كانت تضطلع بدور المعلومات المهم حركة الاستشراق والمستشرقين التي أسدت خدمات جليلة في ذات الاتجاه؛ من خلال الغوص في أعماق التاريخ والإرث الإسلامي العميق، والعمل على استكشاف كل ما يمكن الاستفادة منه في خدمة الغرب في سجاله ومواجهته الإسلام عبر العالم؛ فكان عملها خير عون ومساعد للجيوش الاستعمارية الغربية في غزو واختراق الدول والمجتمعات الإسلامية.

وتُمثِّل الأسطر التالية جانباً أولياً من الرصد والمتابعة والقراءة في مسيرة تطبيق استراتيجية الولايات المتحدة في بناء شبكات إسلامية معتدلة لمواجهة السلفية في العالم .وهذا الجهد في مجمله تلخيص لمعلومات وردت عبر مختلف الوسائط الإعلامية.

أبعاد استراتيجية أمريكا في استغلال الصوفية لترويض المسلمين:

انشغل عدد من مراكز البحوث الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد 2001م،وطبقاً لموجّهات استراتيجية عليا؛ بهندسة استراتيجيات عملية لتحجيم السلفيين ومحاصرة ما يصفونه بالإسلام السياسي، عبر إنشاء شبكات من مجموعات إسلامية أخرى تحديداً ممن يطلقون عليهم

الجماعات الدينية التقليدية، ممثلة في الصوفية وجماعة البلاغ والعلمانيين الليبراليين في جانب، والشيعة في الجانب الآخر وكما هو معلوم يتلخّص الدور المناط بهذه الشبكات في تحقيق قبول لأمريكا وسط المسلمين، وتحسين صورتها ومساعدتها على خلق بيئة هادئة لعمل استراتيجياتها التي تنشط داخل أرجاء العالم الإسلامي .ولم يعد سراً اعتماد الاستراتيجية الأمريكية الإسلامية الجديدة على بعث الفكر الصوفي والطقوس الصوفية بَدءاً بتوثيق الصلات الأمريكية مع المشيخات والطرق الصوفية التي اختيرت بعناية فائقة للعب الدور المنتظر منها، وظهر بجلاء انخراط البعثات الدبلوماسية الأمريكية في مهام جديدة عبر صندوق سفرائها لإعادة إحياء المقامات والأضرحة من أجل إعلاء المؤثرات الروحية الصوفية التي يرون فيها سبيلاً للقضاء على تأثير التيارات المتشددة وتنتظر أمريكا عائداً سريعاً لذلك العمل المشترك سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

تحديات تطبيق المشروع الأمريكي لاستغلال التصوف:

طرح الباحث الأمريكي أبو بكر كروليا سؤالاً منطقياً حول استعداد الصوفية وقابليتها للانخراط في المشروع الأمريكي، عندما تساءل هل تقوم المجتمعات الصوفية بإعداد نفسها أيديولوجياً لبناء وجهة نظر عالمية والانخراط بصدق مع الغرب لوضع إطار أخلاقي ومعنوي لإقامة العدل والمساواة؟ إلا أن الباحث اكتفى بعرض السؤال وأعرض عن الإجابة، تاركاً ذلك للصوفية أنفسهم؟ وانتقل إلى القضية الأهم في الجانب الآخر، ليتناول طبيعة الشريك الأمريكي وفرص نجاح مثل هذه الشراكات مع المتصوفة، فيقول مبيّناً عن حكومة الولايات المتحدة : يجب أن تكون واعية لحقيقة أنها شريك في العالم، وأنه لا يمكن حتى

للصوفية التفاوض أو الحوار مع شريك تقتصر مصلحته الذاتية على أساس الهيمنة والسلطة ثم بيَّن أن الاستراتيجية الأمريكية الصوفية صائرة إلى فشل حتمي على المدى الطويل بسبب طبيعة الشريك الأمريكي ، حيث يقول:سياسة الحكومة الأمريكية لدمج الصوفية المعتدلة والمسلمين التقليديين أوالحكومات الصديقة؛ ستحقق بعض النجاح، لكن نهجها الأصيل في سياستها ليس له استدامة على المدى الطويل لإقناع المسلمين، بسبب فرط استخدام القوة الأمريكية التي تضر أكثر مما تسعى إلى تحقيقه من أهداف ثقافية متعددة إذن؛ فالمصالح الذاتية هي محرك المشروع الأمريكي طبقاً لما يراه الباحث، وليس الحرص على إشاعة العدل والسلام كما هو الادِّعاء؟فما سيحدّد فرص نجاح المشروع الأمريكي الصوفي هو مدى استعداد الشريك الأمريكي للتنازل عن مبدأ استغلال الغير وترك الهيمنة والتسلط في مقابل التعامل مع شريكه بمبدأ الندية وعدم الازدواج والالتفاف وانطلاقاً من ذات السياق، تبرز جملة من التحديات لسياسة تمكين الصوفية من قيادة العالم الإسلامي، يتلخص أبرزها في التالي:

التحدي الأول :التشكيك فى إمكانية نجاح عملية بناء شبكات صوفية ليبرالية بالطريقة التي ترغب فيها الولايات المتحدة، وبالأهداف المرجوة من صياغة شعوب مسلمة لا تبالي بدينها، وتترك الساحة لأعدائها، وتقصر تديّنها على الروحانيات والتبرُّك بالمقامات وتركن إلى العقائد والأذكار الباطلة.

التحدي الثاني :التشكيك فى امتلاك الصوفية مقومات قيادة الشعوب المسلمة، أو امتلاك القدرات الخارقة لمغالبة القيادة الإسلامية الحالية التي تقود صحوة دينية قوامها التأصيل الشرعي وتظهر مجهوداتها

الفذة في طرح الإسلام كمنهج حياة، ولا تكلّ عن العمل على إعادة تجميع الأمة تحت الكتاب والسنة المطهرة في حدود الممكن ويأتي في صلب هذا التحدي التساؤل عن مدى إمكانية دمج جميع الطرق الصوفية في المشروع الأمريكي - تحديداً الطرق الموجودة في البلدان العربية، خاصة في ظل العلاقات التي تحكم وجود الصوفية في بلدانها.

التحدي الثالث :التشكيك فى مدى صدق الولايات المتحدة في اتخاذ الصوفية كشريك إسلامي استراتيجي لتمثيل الأمة الإسلامية، وبمدى صبرها على السير في طريق طويل) يستهدف إعادة صياغة كامل الأمة الإسلامية على الطريقة الأمريكية (في مقابل تحقيق نجاح مشكوك فيه أصلاً.

يضاف إلى ذلك التشكيك في مدى تحمّل الميزانية الأمريكية المرهقة عمليات الصرف إلى ما لا نهاية على استراتيجية يرتهن تطبيقها بالوكالة على أطراف لم تخبرها الإدارة الأمريكية جيداً سوى التعويل عليها من خلال توقعات مراكز البحث الأمريكية.